# ثانيا- البدائل النظرية في علم الاجتماع:

## 2) النظرية الفينومينولوجية (المحاضرة 08):

### 1- مفهوم النظرية الفينومينولوجية :

الفينومينولوجيا هي علم ظاهرات الوعي منواله من الأفعال والانفعالات من الأفكار والاحساسات من المعطيات والأشياء كل ما يدخل في نطاق التحليل والوصف بحسب الماهية هو ظاهرة فينومينولوجية غير ظاهرة الطبيعية/النفسية وكل مقومات هذا التحليل هي مقومات ظهورية فضلا عن التمييز بين الظهور والظاهر، أي بين معطى متصل بما يظهر ومعطى متصل بالمزضوع.هذا الازدواج يلزم عن التضايف-ارتباط اوصلة- والتعلق بين الظهور والظاهر وهو نا عاينه هوسل في المعنى الأصلي بين فعل الظهور وما يظهر أو مايبين عن نفسه ثم شاع استعماله عند أتباه مثل ماكس شيلر الذي يؤكد على الوصف الدقيق لمعرفة مكونات الظاهرة دون الالتفاف الى جوانبه السطحية أو إلى أعراضه الحسية الظاهراتية في الواقع.

تركز الفينومينولوجية على أولوية الوعي والمعني الذاتي النابع من الخبرة، والمرتبطة بعملية التأويل في بناء وتشكيل المعرفة، متجاهلين علاقة المعنى بالبنى الاجتماعية، وتطور التنظيمات الاجتماعية وتغييرها، ودور القوة في تحديد مسار الفعل ومعاييره، وصناعة المعني ودلالاته أسبابه ودافعيته. الأمر الذي يطرح أمام النظرية الفينومينولوجية تساؤلات ذات قيمة، حول سياقات المعني المنبثقة عن هذا الفعل، وما يرتبط به من علاقات، مما يقرب مفاهيم الفينومينولوجيا وافتراضاتها من الواقع بكل جوانبه، ويمنحها قدرة تحليلية على المستوى بعيد المدى.

حيث تنطلق هذه المحاضرة من الأطروحات الأساسية للنظرية الفينومينولوجية، من خلال قراءة الأفكار والرؤى التي قدمها **"هوسرل وشوتز"**؛ كأهم مؤسسي هذه النظرية في تحليلهم للواقع الاجتماعي، ومن ثم الوصف الفينومينولوجي المعدل الذي قدمه **"بيرغر ولوكمان"** حول التشكيل الاجتماعي للواقع، معتمدين على محاولة لوضع إطار فكري متكامل؛ ضمن استدماج النظرية الفينومينولوجية بمستويات التحليل السوسيولوجي الجزئي والكلي ، التي تعكس أنماط متكاملة من السلوك، وتبرز قضايا الحياة اليومية للمدينة الجزائرية؛ لتجسيد الحركة التوليفية النظرية.

### 2 - الأطروحات الأساسية للنظرية الفينومينولوجية :

تعتبر الفينومينولوجيا (الظاهراتية) Phenomenology، أحد المنظورات الأساسية في التحليل السوسولوجي قصير المدى Micro sociological Analysis ، حيث تركز أطروحاتها الأساسية على بناءات الخبرة والوعي؛ كوسيلة لاستخلاص ما نلاحظه في الواقع، وفهم لجوهر الأشياء وتحليلها، من خلال دراسة السلوك الإنساني وتحليل المعاني وأنماط المعرفة، ودراسة علاقات التفاعل ونوعية المواقف والذات والآخرين، وقدراتهم الشخصية التي تنطبع من ذاتهم الخاصة حول حقائق الأمور والظواهر الاجتماعية المعرفية، وربطها بصورة ذهنية وعقلية ملموسة وبمختلف عمليات الإدراك والشعور، والاعتماد على الأشكال المختلفة للخبرة الذاتية في الحياة اليومية وتحليلها.

حيث ترتبط الجذور العميقة للنظرية الفينومينولوجية بالتقليد الفلسفي، الذي تصاعد في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وارتبط بكل من أدموند هوسرل وهايدجر ، وبونتي، وسارتر ... ولكن **هوسرل Edmund Husserl** كان أكثر فلاسفة الظاهراتية إسهاما في تطوير المنهج الظاهراتي، الذي يرى أن حقيقة الواقع يظهر في الوعي والتأملات والتطورات المرتبطة بذات الإنسان، التي يحملها ويشكلها للواقع الاجتماعي، بواسطة الحواس كحقيقة عقلية ممثلة بالوعي ، ضمن نظريته في الحدس التي أقامها على أنقاض أبنية نظرية الإدراك الحسي التقليدية، التي قدمها ديفيد هيوم وجون لوك، ليتم من خلال هذه الأبنية النظرية المنطقية، إستدخال العالم في الذات واستخراج الذات من العالم، هذه الفكرة التي سيطورها **بيرغر** فيما بعد إلى بنية محورية في سوسيولوجيا المعرفة .

إذ يظهر الفعل الإنساني في سياق معاني الفاعلين ووعيهم الذاتي؛ بدلا من كونه محصلة مؤثرات خارجية، من خلال إعادة الصلة بين المعرفة العلمية والحياة اليومية، كبديل يطرح ضد الوظيفية التي انفصلت عن نبض الحياة اليومية، مؤكدا أن المعرفة العلمية أصبحت منفصلة عن خبرة الحياة اليومية ونشاطها، وهي المكان الذي تنبعث منه تلك المعرفة أصلا، وذلك من خلال تصنيف الخبرات الشخصية للفاعلين، وتأويلها من أجل فهم فكرة رصيد المعاني المشتركة للواقع، التي يستخدمها جماعة ما لوصف الظواهر المشابهة، بدرجة تكفي لوضعها في نفس المجموعة الوصفية، مركز بذلك على بناء الوعي الذي يتحول من ذاتي إلى جماعي بالتفاعل؛ بقصد كشف جوهر الواقع بناء على عملية تأويل تتشكل المعرفة به ، لأنه بحسب هوسرل ليس هناك حقيقة واقعية مستقلة عما يحمله الإنسان؛ لهذا الواقع من معاني تمثل الوعي العقلي به، والذي يتشكل في إطار الخبرات الإنسانية، بمعنى أن العالم الخارجي لا معنى له إلا من خلال وعينا به، باعتباره كون من خلال الوعي لا غير ، ومن ثم بوسعنا الاطمئنان إلى العالم كدافع وسبب وحيد لأنه في أذهاننا ، مغفل بذلك قضية ماهية الواقع الموضوعي.

ولقد قام **"الفرد شوتز A.Schutz"** بطرح المنطق المعرفي للظاهراتية، باستخدامه تعبير المعاني المحدودة، ليؤكد بأن الناس هم الذين يعطون من خلال **البنذاتية Intersubjectivity** معنى حقيقي للأشياء .هذه المعاني التي تنبع من تجاربهم وليس علم وجود الأشياء هو الذي يكون الحقيقة، ومن ثم فان هذا المصطلح؛ يعبر عن طريقة وصف جريان الحياة اليومية للإنسان، ضمن مختلف التجارب ذات المعنى ، وليس لموضوع مادي يشارك الأفراد في صناعته، وفي ضوء ما يعرفونه من خلال الحس البديهي الذي يشكل لدى الأفراد مسبقا حول جميع الموضوعات التي يخبرونها، بدليل أن الفرد يسمع صوت الأخر ككلمات تحمل معاني ذات دلالة تفضي إلى الفهم وليس كصوت مجرد خارجي .

وبهذا يصبح بإمكان الفعل والفعل الاجتماعي أن يحددا الوعي، حيث ينصب اجتماعيا على أفعال الوعي وليس على الفعل عن العالم، والعالم الاجتماعي هو شيء نخلفه سويا بفعل تشييد ما يدعوه **شوتز"** سياقات المعنى"، التي تمثل مجموعة المعايير التي تنظم بواسطتها مدركاتنا الحسية، وتحولها إلى عالم ذات معنى، وإلى ذخيرة من المعرفة، وهي ليست ذخيرة من المعرفة عن العالم بقدر ما هي العالم ذاته، إنها معرفة مسلم بها نكتسبها بالفطرة، وكل واحد منا ينظم هذه المعرفة على أساس ما هو قائم هنا الآن، أي على أساس ما يفعله بزمان ومكان معينين، لترتيب الحياة الاجتماعية بطريقة موضوعية، تضمن جانب كيفية التخطيط وتحقيق الهدف ، إلى جانب الاختيار الذي يجلب للفرد درجة أكبر من الإشباع والمنفعة، ليتضح في هذا الطرح إستدماج شكل من أشكال نظرية الاختيار العقلاني. .

هذا فضلا عن إلقائها الضوء على الدوافع والحوافز السببية، التي تربط بخبرات الماضي والتنشئة الاجتماعية، أو حوافز الغائية القصدية التي سترتبط بتحقيق حالة في المستقبل، الذي يمثل حالة يصعب التنبؤ بها في عالم الحياة اليومية، مما يؤكد أن هناك حدودا لخبرات الأفراد ونطاقا لتفاعلاتهم، فحصيلة المعاني التي يحملونها تتباين حسب ظروفهم التفاعلية، وهكذا تظهر العوالم الفرعية للأفراد ومناطق المعاني المحدودة . الأمر الذي يتطلب تشكيل عالم يشمل البيئة الثقافية بجانبها المعنوي والمادي، فترتبط تصرفات الفرد بهذا المخزون المعرفي والثقافي للجماعة ، ويجعل الأفراد بعد هذا يمثلون متطلبات الدور، لما يضمن من مستويات وحقوق وما يرتبط به من توقعات .

ومن هذا الطرح تتاح فرصة للنظر بصورة واقعية للفينومينولوجية، التي حاولت أن تعيد الصلة بين المعرفة العلمية وخبرة الحياة اليومية ونشاطها، متجاهلة لعلاقات القوة وما تحدثه من أثر في سياقات المعني، حيث يبتعد شوتز عن خبرات الخضوع والإذلال والظلم والقهر، والاستبعاد الذي يمكن أن ينشأ عن القوة، وإذ نظمنا معرفتنا الحياتية انطلاقا من مشروعنا على حد تعبير شوتز، فإن التساؤل المركزي الذي ينبغي أن يطرح هنا : ما هو مشروع أولائك الذين يعانون من جميع مظاهر الاجحاف الإنساني؟! ، لذلك فإن النظرية الفينومينولوجية بصورتها الراهنة ، لا يمكنها أن تستوعب مظاهر إحباطات الناس وأشكال الحرمان الذي يتعرضون له داخل المجتمع، الأمر الذي يتطلب عملية تجسير نظرية الفينومينولوجيا لتشمل قضايا بعيدة المدى تعكس تكامل الفعل والبناء. وهذا ما يمكن الوقوف عليه في الاتجاه الظاهراتي المعدل، الذي يحاول توسيع نطاق الظاهراتية لتشمل نظرية المجتمع.

**2- الفينومينولوجية المعدلة ضمن التشكيل الاجتماعي للواقع:**

لقد تطورت النظرية الفينومينولوجية خلال العقود الأخير من القرن العشرين، لتأخذ أبعاد جديدة ومغايرة، وتقدم تصنيفات متطورة للمسلمات والقضايا الأساسية ، التي تقوم عليها الفينومينولوجية كنظرية معاصرة؛ ضمن إسهامات" **بيتر بيرغر P.Berger** و**لوكمان Luckman** في المؤلف المشترك المسوم بـ**"التشكيل الاجتماعي للواقع The social construction of Reality**، الذي يستمد أهميته من تحليل فكرة التشكيل الاجتماعي للواقع، ويجعل هذه الفكرة بمثابة إطار مرجعي لدراسة البناءات الاجتماعية، وفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية ومجموعة الأفعال والأدوار، والسلوكيات التي توجد بين الأفراد وفي المجتمعات الحديثة .

حيث يعمل"بيرغر ولوكمان" على توضيح الصورة حول عملية التشكيل الاجتماعي، واعتبارها كعملية ديالكتيكية مستمرة بين الأفراد لإيجادها عن طريق أفعالهم وتفاعلاتهم، وخلق واقع مشترك يتكون من خبرتهم عن الحقائق الموضوعية أو الواقع الموضوعي Objective reality، الذي يرتبط بالنظام الاجتماعي أو العالم النظامي الذي يعتبر نتاجا للإنسانية. إلى جانب المعاني الذاتية أو الواقع الذاتي Subjective Reality، الذي ينعكس من خلال المعنى الداخلي الذي يدركه الأفراد. وهذا ما أشار إليه بيرغر ضمن دراسته حول العرش المقدس The sacred conopy، ومناقشته لأفكار متعددة ترتبط بالواقع سواء أكان ذاتيا أو موضوعيا، وكيفية تكوين أو ظهور هذا الواقع حسب أنماط معينة من المواقف والعمليات الاجتماعية، كما تعتبر أنماط الواقع مطلبا أساسيا لاستمرارية النظام ككل . و هذا بفضل قدرة الإنسان على إنتاج عالم يجربه بعدئذ على أنه شيء آخر ليس نتاج إنساني، ومؤكدا في لحظتها على أن

العلاقة بين الإنسان المنتج والعالم الاجتماعي الذي ليس من إنتاجه علاقة جدلية، وسوف تبقى كذلك، بمعنى أن الإنسان وعالمه الاجتماعي يتفاعلان معا.
الأمر الذي يتطلب البحث في الطريقة التي يتشكل بها هذا الواقع، من أجل المزيد من الفهم الحقيقي والكافي للواقع ككيان مستقلا عن المجتمع، أو بعبارة أخرى، كيف تصبح المعاني الذاتية إدراكا موضوعيا للحقيقة . وفي هذا الشأن يرى بيرغر أن تشييد العالم الاجتماعي يمر عبر ثلاث مراحل أساسية في العملية الديالكتيكية وهي: التشييء Exlernchuzation، والذي يعني أن الأفراد يخلقون المجتمع ويبتدعونه، والموضعة Objectivation وتعني بأن المجتمع يشمل واقعا موضوعيا له نتائج بالنسبة للفرد ، لأنه يعود بالتأثير على مبتدعه، والاستدماج Internalization ويمثل نوعا من التنشئة الاجتماعية التي يتم بواسطتها ضمان شرعية النظام المؤسسي، الذي يضمن وجود استمرارية عملية التشكيل الاجتماعي، حيث يظهر هذا النوع من التنشئة الاجتماعية عن طريق وجود درجة عالية من التساوق بين الواقع الموضوعي والذاتي، وبين الهوية الموضوعية والذاتية، موازية بذلك عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لبارسونز، والتي يقوم فيها الأفراد بالإستدماج؛ أي يجعلوا خاصتهم الواقع الاجتماعي المموضع، مع نتيجة أن كل واحد تقريبا يمثل ما كان يسعى أن يكون عليه .

وأخيرا توضح نظرية التشكيل الاجتماعي للواقع، أنه يعني انخراط الأفراد في الاستدماج، إذ يتكيفون مع توقعات المؤسسات الاجتماعية الموجودة، ويعيدون ابتداع وضع المؤسسة الاجتماعية في مرحلة التشييء، وما إن تتشيأ فإنها تصبح مموضعة، وما أن تتموضع فإنها تعود بالتأثير على الفرد باعتباره كيانا مستدمجا، حيث يوضح بيرغر ولوكمان، بأن المجتمع نتاج إنساني"التشييء"، والمجتمع واقع موضوعي (الموضعة)، الإنسان نتاج اجتماعي (الإستدماج).

- إن هذه المراحل أو العمليات الغنية معرفيا، تجمع بين مزايا الدراسات السوسيولوجية الصغرى والكبرى، لاسيما النظرية الوظيفية، الأمر الذي يظهر في محاولة تركيز كل منها على القيم والأفكار والمعرفة والمعايير، باعتبارها العناصر الأساسية التي تشكل طبيعة النظام الاجتماعي، كما أنها تسهم في عملية التنشئة المستمرة للأعضاء أو الأفراد الحاليين الجدد، ولكن دون استثمارها في فهم وتفسير علاقات القوة وبناءاتها، وما يمكن أن تموضعه هذه القوة وتجعله رائجا للإستدماج، وإذا ما تم التركيز على مؤسسات القوة واحتواء دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة، التي تفاقمت خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، فان الفجوة تصبح أكثر وضوحا ، حيث هناك عمليات إجبار وانتقاء ومعايير مشوهة يجرى إستدماجها .

## 2- إستدماج فينومينولوجي لمستويات التحليل المختلفة في الحياة اليومية للمجتمع:

يلاحظ " **أنطوني غيدنز "A.Giddens** " أن هناك معضلة كبيرة تواجه الفينومينولوجية، لاعتقاده أن عملية إنتاج عالم اجتماعي منظم وقابل للتفسير؛ لا يمكن أن تفهم ببساطة بوصفها عملا تعاونيا ينفذ بواسطة أنداد، وذلك لأن المعاني ذات الأهمية هي تلك المعاني التي تنطوي على عدم التماثل في القوة.

و بالفعل فإن الحقيقة الواضحة في الطرح السوسيولوجي؛ للنظرية الفينومينولوجية يبين أن ثم خط جدل مفقود، حيث اقتصر الطرح الكلاسيكي على إعادة الصلة بين المعرفة العلمية

وخبرة الحياة اليومية ونشاطها، ليحاول الاتجاه المعدل فيما بعد للظاهراتية الجمع بين التحليلين الكلي والجزئي، ويبين السبل التي تتطور بها المعاني العليا للظاهرة، وتشترك فيها الجماعة للتنظيم الاجتماعي، والتي يجري تنشئة أعضاء المجتمع الجدد بناء عليها، متجاهلة علاقات القوة في الحياة الاجتماعية، وما تنطوي عليه من تأثيرات في سياقات المعنى.

إن إستدماج النظرية الفينومينولوجية لعلاقات القوة، ستكون موجها رئيسا لنظرية ظاهراتية معاصرة، قادرة على تفسير وتحليل أنساق البنى والقوى الاجتماعية ، وتوضيح عمليات إجبار وانتقاء معايير مشوهة يجرى إستدماجها، بالإضافة إلى ما يمكن أن تلقيه علاقات القوة في تشكيل الخبرة المعاشة لفئات اجتماعية عريضة داخل المجتمع ، والتي ستلعب دورا خطيرا في تحليلها للواقع الاجتماعي، كتلك المحاولات المتأخرة التي حاولت تجاوز نقاط الضعف في الفينومينولوجية، والتي ظهرت في دراسة **"سيمون شارلزوورث Cahrlesworth"**، حول ظاهراتية خبرة الطبقة العاملة APhenomenology of working cless Experience ، التي تبين الخبرات الاجتماعية التي تعيشها الجماعات الاجتماعية المهمشة، وخبرات الخاضعين سياسيا، ولمن يفتقدون القوة الاقتصادية... وبالفعل فالفقر والطبقة لهما خطاب وثقافة ضرورة وظروف واضحة لا يخبرها إلا الفقراء، وليس لمعللي السياسة الاجتماعية. وهكذا يتبين دور القوة وهي المسؤولة عن الخضوع والاستغلال الذي يقع على الفقراء، في تكوين خبرة الابتلاء والمقت والاشمئزاز وخيبة الأمل لديهم.

علاوة على ذلك فإنه إذا ما تم اختيار واقع الحياة اليومية كمعبر وممر إبستيمولوجي Gravese epistemolgique، باعتباره يشمل الوجود المعاشي للإنسان بكل جوانب المعاش اليومي الذي ينظمه، ويحدد علاقته مع البناء الاجتماعي الواسع، ومختلف أشكال التبادل سواء كانت المادية أو الثقافية، والتي تساهم في تفاعل الأوساط المعيشية للأفراد، وتسهيل مختلف أشكال التبادل في إعادة إنتاج حياتهم اليومية، التي تستمر في الزمان وتنتقل عبر عوالم مكانية مختلفة للأفراد، من:

. ذلك أن مجال الحياة اليومية مجال جد شاسع، ويشير إلى الممارسة الاجتماعية في إطارها الكلي كما يقول **"لوفيفر هنري" H. Lefèvre"** ، والذي يتكون من الفعل والبناء ، أو كما أسماه **"غيدنز "** بالازدواج البنائي أو الهيكلي la dualité Structurelle ، الذي يجعل من المستحيل التطرق إلى الواحد الكلي من دون التطرق إلى الثاني الجزئي والعكس صحيح ، فهي إذن علاقة جدلية متكاملة وشاملة ، فحسب "لوفيفر" فإن الميكرو أو الجزئي يفسره الماكرو أو الكلي، بحيث يستغل هذا الأخير ضعف ومحدودية الميكرو، لأنه حسب آراء منظري علم الاجتماع متعدد الأبعاد ، أصبحت الأطروحات التي إنبنى عليها المجتمع غير قادرة لوحدها على الأداء بكل ما يفرزه الواقع المعاصر من ظواهر. مما تطلب وضع محاولات توفيقية بين الفعل والبناء الاجتماعيين، من خلال إعادة بناء شبكة المفاهيم والنماذج الخاصة بالبناء والفعل، بهدف تحقيق معرفة موحدة لما هو منسجم وغير منسجم من الواقع الإنساني، وفهم مختلف التنظيمات الاجتماعية، وتجاوز التناقضات المنهجية العقيمة في دراسة الظواهر الاجتماعية.

باعتبار هذه الظواهر الاجتماعية لا تنتمي وبصفة آلية إلى حقل معرفي معين، بل أصبح الفعل والبناء يشكلان شيئين متكاملين، لا يمكن أن يفهم الواحد دون الآخر، الأمر الذي يتطلب العمل على مبدأ علم الاجتماع متعدد الأبعاد، الذي سوف يساعد لا محالة على التوضيح والفهم، خاصة إذا علمنا بأن الواقع اليومي كأحد المستويات الشاملة للاقتراب السوسيولوجي، يعمل على فهم التفاعلات في إطارها الاجتماعي وضمن تطور أشمل، بحيث يكون فيه الواقع اليومي

عبارة عن مزيج بين الكلي والجزئي، الذي يفرض مقاربة لعلاقات معقدة ومتشابكة من الاستغلال والحرمان والظلم ... ويكون خبرة لفئات إبستيمولوجية اجتماعية عريضة تم الاقتراب إلى تصوراتها ومساءلة واقعها الذي أعطي للأشياء معانيها ودلالاتها ، ضمن منظور أشمل يبرز فيها تفاعلات الفرد والمجتمع، ليساعد على الفهم الداخلي للظواهر الاجتماعية ، كما يطرحه **جوفمان Goffman**، أو كما يسميه ألفرد شوتز علم الاجتماع من الداخل أو علم الاجتماع الداخلي Sociologie du dedans.